

## القرآن الكريم

هو كلام الله القديم ، وهو كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله به قاصم الله ظهر كل شيطان مُريد ، وأدّل به كل جبار عنيد هو الذي سمعته الجن فهتفت قائلة " أنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فلم نشرك به أحداً " هو الذي أحنى رأس الوليد ، والآن قلب " عمر " هو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ويعد القرآن الكريم من الناحية الأدبية ، العامة والخاصة ، العامل الأول في تكوين هذا العصر الأدبي الجديد ، وفيما تلاه من الأعصر ، فالقرآن الكريم هو الذي نقل العرب من البداوة إلى الحضارة ، فارتقى بذلك أدبهم وهو الذي وصلهم بالأمم ، والثقافات الأخرى ، فأثرى بذلك شعرهم ، ونثرهم ، وهو الذي كون بهم إمبراطورية إسلامية كبرى ، فذاعت آثارهم واتسع أفقها ، وتعددت بيئاتها وهو الذي جعل العرب أو المسلمين يطبعون الحضارة العامة بطالع إسلامي خالد ثم هو من الناحية الفنية ارتقى باللغة وآدابها وفعل في الأدب العربي خاصة ما فعله في الشعب العربي أو الإسلامي عامّةً من تمدن ، وخصب في العناصر والموضوعات وذيوع ، وتسجيل لمظاهر الحضارة في العصور الوسطى وذلك حين انفرد بذلك الأدب الإسلامي بوجه عام .

لذلك كانت الخطوة الأولى في دراسة العصر الجديد هي دراسة القرآن الكريم ، ولكن لما كانت الدراسات القرآنية عريضة لا تكاد تُحصى فإننا مضطرون هنا أن نقف عند النواحي التي تتصل بالأدب ، وكانت ذات آثار مباشرة فيه على أننا لإجمال ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، بدلاً من الإسهاب والإطناب الذي لا يتسع له مثل هذا المؤلف .

## معنى القرآن

إن لفظ القرآن في اللغة هو " مصدر مرادف " للقراءة " ومنه قوله تعالى :

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأُنصِتُ لَهُ، ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ.﴾ [سورة القيامة: ١٧: ١٩]

ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً للكلام المعجز المنزّل على سيدنا محمد ﷺ بوساطة " جبريل " عليه السلام على مدى ثلاثة وعشرين عاماً هي مدة بعثته ﷺ ، أو مدة رسالته ثلاث عشرة سنة في مكة ، وعشر سنوات في المدينة وهو من باب إطلاق المصدر على مفعوله ، ولفظ " قرآن " مهموز وإذا حذف همزة فإنما يكون ذلك للتخفيف وإذا دخلته " أل " بعد التسمية ، فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف . وهناك تسمية أخرى للقرآن الكريم وهي " الفرقان " وأصل " مصدر " كذلك ، ثم سمي به النظم الكريم ، تسمية المفعول ، أو الفاعل بالمصدر باعتبار أنه فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق بعضه عن بعض في النزول ، أو وفي السور والآيات يقول تعالى :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [سورة الفرقان: الآية ١]

وهنا الاسمان هما أشهر أسماء القرآن الكريم ويليهما في الشهرة من الأسماء " الكتاب " ﴿الرَّ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ [سورة البقرة: الآيات ١: ٢] والذكر يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ...﴾ [سورة الزخرف: ٤٤] " والتنزيل يقول تعالى : ﴿... نَزَّلْنَاهُ مِن حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة فصلت: من الآية ٤٢] " وقد تجاوز صاحب البرهان في علوم القرآن حدود التسمية فبلغ بها خمسة وخمسين اسماً وأسرف غيره في ذلك حتى بلغ بها " نيفاً وتسعين اسماً " كما ذكره صاحب التبيان .

وفى الاصطلاح ، هو الكلام المعجز المنزل على النبي ف المكتوب في المصاحف والمنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته . وهذا التعريف جمع بين الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم " وإن كان القرآن قد امتاز بميزات كثيرة سواها .

## نزوله

نزل القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة بعثة النبي ﷺ:

ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة وعشر سنين في المدينة المنورة ، وقد نزل القرآن الكريم منجماً ، ومفرقاً لأسباب شتى ، ولحكمة بالغة يقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: ٣٣].

ويقول سبحانه ، ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة

الإسراء: ١٠٦] وكان أول القرآن نزولاً قوله سبحانه ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة العلق: ١: ٥]

وكان ذلك في شهر رمضان المعظم ، وقد نزل القرآن الكريم دفعة واحدة وجملة واحدة في " بيت العزة " وفي ليلة القدر ، فلما كان القرآن ذا قدر عظيم وشرف رفيع كان من المناسب لقدر القرآن أن ينزل في مكان مناسب وعظمة القرآن فنزل في ليلة القدر، في " بيت العزة " ثم أخذ " جبريل عليه السلام " يتنزل به على سيدنا محمد ﷺ حسب الوقائع والأحداث . وهذا سر نزوله منجماً ومفرقاً . وليسهل على النبي ﷺ وعلى المسلمين حفظه فأول آية نزلت من القرآن في شهر رمضان قال

تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ

وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وأخر آية نزلت هي قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ

كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨١]

أما القول بأن آخراية نزلت من القرآن الكريم هي قوله سبحانه:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

هي خير ما نزل من القرآن الكريم فليس بحجة ، وليس هناك دليل على ذلك حيث إن المعروف والثابت أن هذه الآية لها مناسبة فقد قال يهودى لسيدنا " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه حين نزلت هذه الآية نحن معشر اليهود لو أن هذه الآية نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً لنا ، فقال له " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " والله إنى لأعلم الناس على من نزلت ، وفى أى يوم نزلت ، فقد نزلت على رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم فى عرفات ، فى يوم عرفات عام حجة الوداع ، وهل هنا عيد أعظم من اجتماع المسلمين فى عرفات .

وقد نزل بعدها على النبي صلوات الله عليه وآله وسلم " قرآن " حتى بأكثر من شهرين ، وقد ورد عن " ابن عباس " رضى الله عنهما ، وأخرجه النسائى عن ابن عكرمة أن آخر ما نزل من القرآن كله قوله سبحانه : ﴿وَأَنقُضُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وعاش النبي صلوات الله عليه وآله وسلم بعد نزولها " تسع ليالٍ " ثم لحق بالرفيق الأعلى وذلك لليلتين حلتا من شهر ربيع الأول .

## جمعه وروايته

## جمع القرآن في أيام الرسول ﷺ

كان رسول الله ﷺ حين تنزل الآية ، أو الآيات أو السورة يحفظها ﷺ . ثم يسمعه للحاضرين من أصحابه فيحفظونها ، فكان كل ما ينزل يحفظ على الدوام . ولم يكتب رسول الله ﷺ بالحفظ بل كان يطلب كتاب وحيه ، ليقوموا بكتابة ما نزل من القرآن ، وأشهرهم " عثمان ، وعلى ، وزيد بن ثابت وأبى بن كعب " رضى الله عنهم أجمعين فيكتبونه فيما يسهل عليهم من " العُصْبُ واللخاف ، والرقاع وقطع الأديم ، وعظام الأكتاف والأضلاع للحيوان فكان القرآن الكريم في عهد رسول الله ﷺ مكتوباً في هذه الأشياء ، مثلما هو محفوظ في الصدور مع ترتيب الآيات غير أن المكتوب هو محفوظ في الصدور مع ترتيب الآيات غير أن المكتوب لم يكن مجموعاً في مكان ، بل كان لدى أصحابه حينما لحق بربه ﷺ .

ولم يزل كذلك حتى كانت " حروب الردة " في زمن الخليفة " أبو بكر " ﷺ واستمر القتل في " واقعة اليمامة " بالقرءاء " حيث قتل منهم "سبعون" قارئاً فخشي سيدنا " عمر بن الخطاب " ﷺ على حَفَظُهُ " القرآن " أن يستشهدوا في مواطن القتال ، فأهاب بأبي بكر ﷺ أن يأمر بجمع القرآن ، فاستدعى ﷺ " زيد بن ثابت " فقال له : " إنك رجل شاب ، وعاقل لا نفهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه يقول " زيد بن ثابت " ﷺ " فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن " ثم قال " زيد بن ثابت " ﷺ . فتتبع القرآن أجمعه من " العُصْبُ ، واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة " لدى الصحابي الجليل " أبا خزيمه " الأنصاري ﷺ لم أجد لها عند غيره فكانت تلك الصحف لدى " أبا بكر " ﷺ حتى لحق بالرفيق الأعلى ، ثم عند سيدنا " عمر بن الخطاب " ﷺ في حياته ، ثم عند السيدة الفضلى " حفصة " بنت سيدنا عمر بن الخطاب إلى أن طلبها سيدنا عثمان بن عفان " رحمه الله تعالى .

## جمع القرآن

### زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه

وفى عهد سيدنا "عثمان بن عفان" رضي الله عنه اتسعت الفتوحات وكثر العمران، وتفرق المسلمون في الأمصار، فكان كل إقليم يأخذ بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة حتى ظهر اختلاف في وجوه القراءة أدى إلى الشقاق، والنزاع وكادت تكون فتنة في الأرض، وفساد كبير.

والذي حدث أن سيدنا "حذيفة بن اليمان" رضي الله عنه فطن إلى ذلك الأمر، كما في رواية "البخارى" وهو يقاتل أهل الشام في فتح "أرمينية" و"أذربيجان" مع أهل العراق، فأفزعته هذا الخلاف، ولم يكد يعود من غزوه هذا حتى أسرع إلى سيدنا "عثمان بن عفان" رضي الله عنه وقال له: "أدرك الأمة قبل ان يختلفوا في كتابهم اختلاف اليهود والنصارى" فأرسل سيدنا "عثمان" رضي الله عنه إلى السيدة الفضلى "حفصة بنت عمر" وطلب منها الصحف التي كانت عندها، وقد دُونَ فيها القرآن الكريم وذلك لنسخها، وإعادتها "لحفصة" مرة ثانية فأرسلت "حفصة بنت عمر" رضي الله عنه إلى سيدنا "عثمان" رضي الله عنه فأمَرَ "زيد بن ثابت"، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين "رضى الله عنهم جميعاً أن ينسخوها في المصاحف، وكان مما قال للقرشيين "إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش" فإنه إنما أنزل بلسانهم ففعلوا، وكان ذلك في خمسة مصاحف بعث بأربعة منها إلى "مكة" والكوفة، والبصرة، والشام، وأبقى المصحف الخامس لديه بالمدينة المنورة. ثم أمر بكل ما عدا ذلك أن يُحرق حفاظاً على كتاب الله من التحريف، أو الزيف، ثم ردّ الصحف القديمة جميعها إلى السيدة "حفصة بنت عمر" وعرف مصحفه بالمصحف "الإمام" أو مصحف "عثمان".

## أسلوب القرآن المكي

قبل الخوض في غمار المكي ، والمدني نودّ أن نعرّف المكي والمدني ، والمدني هو ما نزل بالمدينة المنورة والصحيح والراجح هو : أن المكي ما نزل قبل الهجرة ولو كان نازلاً خارجها ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نازلاً خارجها .

لقد بدأ نزول القرآن الكريم في مكة مع البعثة المحمدية ، فاصطدم بالوثنية القرشية ، وكان بطبيعة الحال شديداً عنيفاً على هذه الجهالة الدينية الوضيعة ينذر العُصاة ويبشّر المسلمين ، ضارباً الأمثال بهلاك الأمم التي طغت وكفرت بالرسول ، لافتاً الأنظار إلى آثار الأمم السابقة الهالكة ، وكان مع ذلك يضع الأصول العامة للدين الجديد ، بدلاً من التقاليد الوثنية ، ولذلك غلب على " القرآن المكي " هذه الموضوعات :

**أولاً : التوحيد – لا إله إلا الله**

**ثانياً : الرسالة :** محمد رسول الله ، والقرآن وحى الله إليه .

**ثالثاً : البعث :** فالموت يعقبه اليوم الآخر الذي يحاسب فيه الناس على ما قدموا في الحياة الدنيا .

**رابعاً : الجزاء :** فالجنة للأخيار ، والنار للأشرار هذه الدعوة القرآنية في مكة تستلزم أسلوباً خاصاً ، فكان هذا الأسلوب قوياً وموجزاً ، قصير الآيات والسور ، فيه السجع ، أو ما يشبهه من " ازدواج وموازنة " وهو أسلوب موسيقي عنيف ، لأنه وعيد وإنذار ، وإيقاظ لهذه النفوس التي تصنع الأصنام ثم تسجد لها ، وتعبد لها من دون الله ، وهو أسلوب الخطابة الثائرة ، والغاضبة أيضاً ، وإن لم يكن من نوع الخطابة المعروفة للجاهليين .

## القرآن المدني

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ونشطت الدعوة واستقر الإسلام بعد الغزوات الكبرى ، أخذ القرآن المدني يضع للمسلمين أصول الشريعة ، ونظم الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، ويعلمهم شعائر الدين ، وقوانين الأسرة والتعامل ، وقواعد القضاء والحكم فصارت له بذلك موضوعات أخرى لا يعتمد على عنصر الشعور وحده ، وإنما تعتمد على العقل والروية ، فاستلزمنا لذلك هدوءاً وسعةً في التعبير وكان الأسلوب لذلك مبسوطاً ، ومطولاً ، وهادئاً طويل الآيات والسور ، ومفصلاً تفصيلاً طويلاً إلا أن يجادل اليهود ، أو المنافقين فتعود إليه شدته لأنهم كانوا معاندين ، أو كائدين .

ومن هنا قلما نجد في القرآن الكريم من حيث صلته بمواعيد نزوله أو بموضوعاته العامة .

## القرآن الكريم

### ليس بشعر ولا نثر

إن القرآن الكريم ليس بشعر، ولا نثر، فليس هو من " بحر الطويل " أو " البسيط " أو " الوافر " وإن وردت فيه آيات على هذه الأوزان العروضية المعروفة ذلك لأن الشعر يجب أن يقصد لذاته ، وأن يؤلف من هذه المقطوعات ، والقصائد ذات الوحدة الوزنية العروضية المعروفة مثلما هو واضح معروف .

وكذلك ليس القرآن الكريم من النثر المعروف " المسجوع " أو " المرسل " وليس من سجع " الكُهان " ذلك الذي كان معروفاً لدى " قس بن ساعدة الإيادي " وليس من المرسل الذي عرفه الكتاب فيما بعده ولا الذي نعرفه في أحاديث الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وخطب الخطباء ، فهو مخالف لهما أو هو كما يقول بعض المستشرقين – وسط بينهما ولكن مع ذلك " كلام موسيقى " له طابعه الخاص به يشبه الوزن ، ويمكن تبيان خواصه الموسيقية العامة في نواحٍ أربعة ، والقرآن يخالف بها الكلام النثري المعهود .

## الموسيقى القرآنية وخواصها

إن للموسيقى القرآنية وقع وأثر عظيم في النفوس خاصة لدى المتذوقين لآياته ، والفاهمين لكلماته فترى هؤلاء قد سرت معاني القرآن إلى قلوبهم بمجرد مصافحة الآيات لأذانهم . يقول سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [سورة القمر: ١٧] " فانظر إلى بدء

الآيات والسور في مثل قوله سبحانه ،

أولاً : " يَتَأَيُّهَا النَّاسُ " و ﴿ حَمَّ ١ ﴾ [سورة غافر: ١] و ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُزِيلِهِ مِنْ عَيْنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١ ﴾ [سورة الإسراء: ١] .

ثانياً : نهاية الآيات كقوله سبحانه " يَعْلَمُونَ " " يُؤْمِنُونَ " " عَصِيًّا " و " نَجِيًّا " و " الْمُهْتَدُونَ " .

ثالثاً : في داخل الآيات ، والجمل تجد تناسقاً موسيقياً بين الحروف ، والكلمات المتقابلة مثل قوله سبحانه ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ١ ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿ ٢ ﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿ ٣ ﴾ كَلَّا سِعَامُونَ ﴿ ٤ ﴾ تَرُكَّلا سِعَامُونَ ﴿ ٥ ﴾ [سورة النبأ: ١: ٥] فإننا نرى أن بين كل جملة وأخرى " تقابل " موسيقى في عدد الكلمات والحروف والحركات .

رابعاً : العبارات ، أو الأسلوب : وتتألف العبارات أو الأسلوب من جمل ليست مرسلة تماماً ، وليست مسجوعة تماماً ، إذ ليس في آخرها قرائن ، وليست خالية من التقسيم الذي يشبه جمل السجع .

ففي القرآن " الفواصل " التي تقابل " القوافي " في الشعر و " القرائن " في النثر المسجوع ، ومن هذا الوجه يسمى " نقاد الأدب " الحديث " القرآن قرآناً " يعني أنه فن يخالف " فنّي " المنظوم ، والمنثور .

ويراه في جملة موزعا بين السجع ، والإرسال ، والموازنة بقوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢]

فهو نثر مرسل ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ ﴾ [١] وَوَضَعْنَا عَنكَ

وَزُرْكَ ۖ ﴾ [٢] الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [سورة الشرح: ١: ٣] وهناك ذكرك نثر مسجوع ، وقوله

سبحانه ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ ﴾ [١] عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ۚ ﴾ [٢] الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴾ [٣] [سورة النبأ: ٣]

هو نثر موازن أو مزدوج .

## الموسيقى القرآنية

ومهما يكن من هذا الخلاف ، ودواعيه ، فهناك صفة موسيقية سائدة

في أسلوب القرآن الكريم يخالف بها المنظوم ، والمنثور ، وهذه الصفة نجدها في آخر

الآيات وفي الصلة بينها ، فعندما نقرأ القرآن لا نجد أنفسنا مسترسلين استرسالاً

سهلاً ، إنما تنتقل بين آيات وفواصل متناسبة ذات نظام أو تيار موسيقى خاص

طويلاً وقصراً إلى حد أنك تستطيع في الآيات القصار تبين هذه الملاءمة في عدد

الحروف والكلمات وأوزانها وتجد التناسب الموسيقى بين الآيات المتوسطة

والطوال كذلك ، وكل سورة – مهما تكن – فهي مقسمة أقساماً طبقية يحسن

الوقوف عندها ، هذه الأقسام هي الآيات فلست مختاراً إلا أن تكون مريضاً

أو مُجْهُوداً في أن تجد هذه المقاطع الطبيعية التي تستطيع التنفس عندها .

فالقرآن الكريم مفصل تفصيلاً طبيعياً يضطرك لأن تقف عند فواصله ، إلا

أن تكون في حاجة إلى الإسراع .

## فنون القرآن

وهناك نقطة ثالثة تتصل بالأسلوب وهي اختلاف الأساليب باختلاف الفنون العديدة التي استحدثتها أو قواها " القرآن الكريم " ففي القرآن الكريم نجد " القصص ، والحوار ، والتمثيل ، والوعظ ، والتقدير ، والمديح ، والهجاء " ولكل فن منها أسلوب معروف ، ودراسة هذه الأساليب تحتاج إلى فراغ طويل فأدار الحوار بالبراهين العقلية ، والخطابية وفصل فيه القول تفصيلاً رائعاً جَزْلاً ، وقص في سهولة وروعة ، وضرب المثل ، والحكمة موضحاً ، وواعظاً وَشَرَعٌ للناس شعائر الدين ، والدنيا ، ومدح ، وهَجَاً كل ذلك في سبيل غايته التي نتناول الكلام عنها هنا وفي هذا المضمار .

### أغراضه وغاياته وفنونه

حين نوازن بين الشعر ، وبخاصة الشعر الجاهليّ ، وبين القرآن الكريم من حيث الغاية فإننا نجد فرقاً واضحاً فالشعر مع اختلاف فنونه ، وأغراضه من مدح ، وهجاء وفخر ، وحماسة ، ورتاء وغزل ، إنما يعبر عن لحظات شعرية طارئة متباينة لا تخضع لوحدة عقلية معينة وتنتهي غايته إما عند حد التعبير وكفى ، وإما عند التأثير في السامعين تأثيراً قد يكون محموداً ، وقد يكون مذموماً ولكن القرآن الكريم له هذه الأغراض ، أو الفنون التي أوامنا إليها قبلاً وهي كثرة كاثرة من " قصص ، ووصف ، وحكم ، وتشريع ، وهجو ، وثناء " لكنها في الوقت نفسه ذات وحدة ، أو فكرة رئيسية تسيطر عليها ، وتنتهي لديها من أجلها نزل القرآن الكريم ، وجاء الدين الإسلامي وهي فكرة التوحيد .

فالدعوة إلى التوحيد توجد صريحة مستقلة قبل كل شيء ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص:٤] ونجد الوعظ ، وما يتصل به من ترغيب وترهيب يدور وينتهي إلى الإيمان بالله والواحد الديان .

والقصص لا يقصد به التسلية ، أو الفكاهة ، بل هو للإذكار ، والاعتاظ وإقامة الدليل على قدرة الله تعالى ، وما قص به شؤون السابقين ممن عصوا وطغوا ، وبعثوا ، وبعثوا ، وبعثوا في الأرض فساداً ، والله لا يحب الفساد . أما الذم فهو منصب على جماعات عارضت الدين ، وناصبته العداوة والحرب ، سراً ، وعلانيةً ، فهو يذم المنافقين ، والنصارى والمشركين ، لا رغبة في الذم لذاته ، ولكن لإنكارهم التوحيد والمدح إنما هو لأفراد ، وجماعات قبلوا الدين الجديد وأيدوه بأموالهم ، وأرواحهم ، وأبنائهم ، وبذلوا في سبيل رفعته كلَّ غَالٍ ومرتخص ، فهو يثنى عليهم ، ويعددهم بأحسن الجزاء والثوبة ، وليس ذلك حباً للمديح ، ولكن لقبولهم فكرة التوحيد حتى في التشريع المتصل بالزواج ، والطلاق والبيع والشراء ، والسياسة المتصلة بشؤون الجماعة الإسلامية وغيرها كل ذلك لتكوين شعب مؤمن بالتوحيد ، ويعيش في ضلال فكرته الأساس ، ودينه الصريح وينقلها من جيل إلى جيل .

فالقرآن الكريم يجمع بين الوحدة الفنية الخالصة ، وبين التنوع الذي يظهر في هذه الفنون المتباينة التي احتواها القرآن الكريم . وخلاصة هذه الفكرة الإجمالية هي أن القرآن الكريم واحد في غرضه ، وفكرته ، وأساسه ، ومتنوع في فنونه ، وأبوابه .

أما غايته الدينية وسياستها وهي نظرة موضوعية ، وشكلية فقد كانت جديدة أيضاً ، لأن القرآن دَعَا إلى دين جديد لم يكن معروفاً من قبل ، ودعا فيه إلى مُثل عليا، وتعاليم واضحة كاملة إيجابية يقيمها على أنقاض الوثنية أو المسيحية، أو اليهودية المشبوهة ويؤدى ذلك بأساليب متباينة حواراً ، وقصصاً وتمثيلاً ، وتقريباً ، وبرهنةً ، إلى نحو ذلك من سبل الإقناع والتأثير .

ويمكن ملاحظة ذلك بالنسبة للعرب الذين ظهر فيهم الإسلام ، ونزول القرآن . وإذا قمنا بموازنة بين القرآن ، والشعر الجاهلى ، فهذا الشعر لم يكن يعرض للناحية الخلقية ، ولا للمذاهب الدينية ، وما يروى عن بعض الشعراء أو الكهان – إن صح – لا يدل على مذهب واضح تام ولا على فكرة ناضجة معقولة تقوم على وحى أو دراسة وجميع ما ورد منها فكرة ضيقة لا خصب فيها ولا نماء بل تدل فقط على الشك ، والحيرة ، والقلق ، وعدم الاطمئنان إلى عقائد العرب ، والطمع فى مثل أعلى يلائم حاجة هذه النفس العربية المتطورة – فخطبة " قس بن ساعدة " الإيادى تُومىء إلى وجوب التبصر والاعتبار بالكون ومظاهره ، ولكن إلام يدعو وما عقيدته ؟ وما مثله ؟ كل ذلك غير واضح ولا مفهوم كذلك الذين يسمون بالحنفاء فعن كل ما يعرف من أمرهم هو أنهم كانوا يكرهون الحياة الجاهلية وما فيها من " سَفَه ، وقَسَاوَة ، وغلظة ، وجفاء " عن المثل العُلَيَا ، وكانوا غير مطمئنين إلى اليهودية والمسيحية ، مع أنهم لم يكونوا يعرفونها معرفةً تامة فكل ما كان هو أنهم يتوقعون شيئاً جديداً يغير هذه الحالة ولكن ما هذا الشيء الجديد ؟ لا يعرفون هذا كله على فرض صحة آثارهم المروية لنا .

## وضوح أفكار القرآن

أما القرآن فقد جاء بأفكار، وأعراض غاية في الوضوح والدقة ، لا سبيل إلى الشك والحيرة فيها ، ولا يختلف في فهمها اثنان ، فهو ينكر الحياة الجاهلية في جملتها إنكاراً تاماً ، لكنه يعرف لماذا ينكرها ، وما ينكر منها ، وما الذي يريد وضعه بدلاً منها ، فهو ينكر عبادة الأوثان لأنها لا تلاءم كرامة العقل البشري الذي أنعم الله به على عباده وهم محاسبون على هذه النعمة ، فإنه من غير الملائم لكرامة الإنسان أن يدين لحجر لا ينفع ولا يضر ، ولا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يعقل فهذه الفكرة جلية واضحة في القرآن الكريم وغير خافية على ذى لب . فالقرآن لا يدعوهم إلى ترك الأوثان فحسب ، بل يهدم لبني ، يهدم عبادة الأوثان ليقيم مكانها عبادة جديدة يتقدم بها الناس إلى إله واحد موجود عالم قهار ، فقد أحدث هذا العالم بعد أن لم يكن وصور ماضية أحسن تصوير ، وأجرى ما فيه على قوانين هي أبداع ما يمكن أن يتصوره الناس ، وهو يكرر هذه الأشياء ، وفي كل مرة يزيدا وضوحاً وجلالاً لا يحتاج في فهمها أن يكون الإنسان عالماً ، أو متفلسفاً أو من خاصة الناس وإنما هي دعوة جلية وواضحة ومبسوطة لأنها موجهة إلى الناس جميعاً .

وكما أن القرآن الكريم يجادل هذه الدعوة مجادلة واضحة ومفهومة ، تجده كذلك يستدل على بطلان عبادة الأوثان بدلائل ميسرة وسهلة وواضحة ومفهومة يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ فَذَكَرْ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۖ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۖ﴾

فَيَعْبُدُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿١٧﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٩﴾ ﴿

[سورة الغاشية: ١٧: ٢٦]

فهو يتجه إلى الناس على اختلاف طبقاتهم واتجاهات تُلأم هذه الطبقات ، وهو يقدر أن في العرب أناساً ليسوا وثنيين تركوا الأوثان إلى عبادة الله على نحو لا يراه ملائماً للحق ، ولا للطبقة الإنسانية ، فهو يهاجم الوثنيين ، ويهاجم ما في المسيحية من مُنافاة للوحدانية ويهاجم أيضاً ما أدخله اليهود على يهوديتهم من باطل وزور ، وهو يناقشهم جميعاً مناقشةً عقليةً تُلأم عقلية اليهود ، والنصارى من العرب .

وهكذا نجد القرآن الكريم مجدداً في غايته بفكرة عالية واضحة كل الوضوح ، وميسرة للناس مهما اختلفت درجاتهم من الثقافة وعقلياتهم من الرقى .

## تأثر العرب بالثقافة القرآنية

هذا اللون من الفكر، والدعوة إلى مثل أعلى لم يكن معروفاً لدى العرب فليس غريباً، ولا عجيباً، أن يكون لهذا الكلام، ولما فيه من تجديد أثر بالغ في النفوس العربية فيجعلها تعيش في حالة انبهار تام وخاصة بعد انتهاء الخصومة، وزوال الخلاف ويطمئن الناس إلى قراءة القرآن، والتفكير فيه بهدوء واطمئنان حتى يكون الحكم عليه عادلاً، فإذا ما تحقق ذلك اطمأن الناس وآمنوا به أنه من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وليس غريباً أيضاً إذا قرأوه، وتدبروه أن تتغير عقلياتهم تغييراً تاماً، وذلك لبعده الفارق بين ثقافة القرآن وتلك الثقافة الجاهلية التي لم تتناول إلا الصحراء والإبل والظباء وهذه الخصال البدوية التي تدخل الشعر مديحاً وهجاءً - فأين ذلك من كلام يتناول الفكرة الدينية كأقوى ما يمكن، وبأساليب متباينة منها السهل والصعب والقصير، والطويل؟! .

بالإضافة إلى ذلك أن الأساليب التي يتخذها القرآن لتحقيق هذه الفكرة الدينية تختلف اختلافاً في غاية الخصب، والفناء، فهو يثبت ما يلجأ إلى الجدل العقلي مرةً وإلى ضرب المثل مرةً أخرى، وإلى القصص حيناً، وإلى الإشارة إلى ما سبق في الكتب الدينية المقدسة حيناً آخر، وفي هذا كله يأتي العرب بأشياء جديدة لم يسبق لهم معرفتها فهم لم يعرفوا قبلاً أخبار الأنبياء، ولم يتعودوا هذه الأمثال التي يضربها لهم القرآن. وهكذا نجد القرآن الكريم جديداً في "أساليبه ومعانيه، وأعراضه وغاياته" وكان من المنتظر أن يقلب حياة الأمة العربية ويغيرها سراعاً وبقوة، ولكن هذا التأثير سنتناوله إن شاء الله فيما بعد.

## بلاغته وإعجازه

## لا تفاوت بين آيات القرآن الكريم

لا خلاف بين العلماء على بلاغة القرآن ، وإعجازه ، بيد أن بعضهم يذكر قائلاً : إن هناك تفاوت في آيات القرآن الكريم فبعض آياته أبلغ من بعض ، وهذا في رأينا غير صحيح ، لأن الحكم على آية بالبلاغة متصل بطروفي الآية ، وبالذين وجهت إليهم ، أي انه يتصل بالمناسبة التي لا يستها ، فإذا درسنا القرآن الكريم على هذا الأساس ظهر لنا أن آياته كانت تنزل مُلائمةً للظروف التي ظهرت فيها وبذلك يتحقق لها معنى البلاغة من كل وجه .

ولكن مدخل الشبهة على هؤلاء أنهم يرون آيات منها سرد لأسماء ، أو فيها تكرار ، أو تنظيم ، وهذه يرونها أقل روعة من آيات أخرى فيها حُسن تصوير أو إيجاز ، أو تمثيل ، أو كناية ، أو غير ذلك فبذلك يفرقون بين قطعة ، وقطعة أو بين فن ، وفن غافلين عن هذه الملاءمة التي أوامنا إليها ، وبذلك يفاضلون بين آيات القرآن بلاغياً ، وهذا مصدر الخطأ ، وسوء التقدير

وعلى ذلك فأول نقطة نذكرها لدى الكلام على بلاغة القرآن الكريم هي ملائمته للأحوال التي ظهر فيها ، من حيث الزمان والمكان ، والجنس ، ونفسية المخاطبين ، والحال العامة للبشرية كلها في كل زمان ومكان . وهناك بحوث تتصل بذلك وهي " أسباب النزول " فهي تدل على مقدار الملاءمة بين موضوع الآيات ، ومعانيها ، وأساليبها ، وبين المخاطبين في كلِّ أحوالهم ، فإذا تقدمنا قليلاً صادفتنا هذه الفنون البيانية التي أوامنا إليها آنفاً ، وكانت جديدة رائعة ومُلائمة لغاياتها ، ومحققة لما ترمى إليه ، وأما إذا وقفنا عند خواص الأسلوب فهناك أشياء كثيرة وسنشير إليها بإذن الله تعالى بشيء من الإيضاح .

## فنون القرآن البيانية الأمثال

هذه أمثال قرآنية ، والتي سارت حُججاً حاسمةً كما هي زينة الكلام وحسن وجمال مثل قوله سبحانه : ﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَفَرِّقٌ... ﴾ [سورة الأنعام: ٦٧] و " كل حزب بما لديهم فرحون " وقوله تعالى : ﴿... ضَعُفَ الظَّالِمُ وَالْمُظْلُومُ ﴾ [سورة الحج: ٧٣] و ﴿... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى... ﴾ [سورة الحشر: ١٤] و ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ... ﴾ [سورة المائدة: ٩٩] و ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ... ﴾ [سورة يونس: ٣٩] و ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ... ﴾ [سورة الروم: ٤١] و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [سورة المدثر: ٣٨] .

### التشبيه

وها هو ذا تمثيله التصويرى الرائع الذى يعد مثلاً عاليةً فى إبراز المعنويات فى صور حية دقيقة ، يقول تعالى :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [سورة الكهف: ٤٥] .

ويقول سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [٢٤] ﴿ تُوْتِي أكلها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٢٥] ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [٢٦] [سورة إبراهيم: ٢٦] إلى غير ذلك مما هو كثير وشائع .

## الكناية

وهذه الكنايات القرآنية التي تستعمل حيث لا يحسن التصريح ، وتؤدي المعاني أحسن أداء .

**يقول سبحانه:** ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا...﴾ [سورة فصلت: ٢١]

وهي كناية عن " الفرج " أى وقالوا لفروجهم لم شهدتم علينا فكنتى بالجلود عن الفروج . وهي غاية فى الجمال ، والروعة وقوله سبحانه " ... وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُمْ سِرًّا... ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٥] " يعنى نكاحاً " هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ... ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٩] " كناية عن " آدم " عليه السلام . وقوله عز وجل ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِجْمَةً وَوَلِي نِجْمَةٌ وَاحِدَةٌ...﴾ [سورة ص: ٢٣] يعنى امرأة وقوله سبحانه: ﴿أَوْ مِنْ يُنْسَوْنَ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الزخرف: ١٨] كناية عن النساء ينشأن فى الترف، والزينة الشاغلة عن النظر فى الأمور.

## التعريض

والتعريض لون من ألوان الكناية التى أومأنا إليها آنفاً ومثاله قوله سبحانه: ﴿... قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...﴾ [سورة التوبة: ٨١] فإن المقصود بذلك هو التهديد للمتخلفين عن القتال ، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا...﴾ [سورة الأنبياء: ٦٣] بل فعله كبيرهم هذا سخرية به ، وبهم وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَأَ أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي...﴾ [سورة يس: ٢٢] يعنى مالكمهم إلى غير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم .

## الإيجاز

والإيجاز لون من الألوان البلاغية الواردة في القرآن وهو باب دقيق به يتفاضل البلغاء ، وفيه يتنافسون ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَأْتُوا لِي الْأَلْبَابِ...﴾ [سورة البقرة: ١٧٩] .

وقد كان للعرب حكمة يعجبون بها ، ويعدونها من أوابد الكلم وهي قولهم "القتل أنفى للقتل" فلما نزلت هذه الآية القرآنية تضاءلت أمامها حكمة العرب وظهر فيها ضعف المخلوق أمام جبروت الخالق سبحانه وتعالى فإن الآية كلمتان وهما "القصاص ، والحياة" وكلمة العرب أربع ، والآية بريئة من التكرار الحاصل في كلام العرب وفي الآية ترغيب في القصاص بذكر "الحياة" المحبوبة وجعلها نتيجة له . وفي الآية إظهار للعدل بذكر كلمة القصاص كما تبين الآية أن القتل ليس تشفياً ، بل هو عدل وفي الآية تنكير لكلمة "الحياة" وهو للتعظيم ، والحكمة خطأ إذ ليس كل قتل أنفى للقتل ، فإن ذلك يشمل الاعتداء وأن الذي ينفي القتل هو "القصاص" .

ومن أمثلة "الإيجاز" قوله تعالى: ﴿حُذِرَ الْعَفْوَ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩] .

وقد جمع الله تعالى في هذه الآية "مكارم الأخلاق" وقوله سبحانه: ﴿وَأِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ...﴾ [سورة الأنفال: ٥٨] ومما ذكرناه آنفاً يستبين لنا بوضوح وجلاء تامين أنه لا يستطيع بليغ مهما أوتى من قوة البيان أن يعبر عن هذا المعنى بهذه الألفاظ حتى يصل مقطوعها ، ويبسط مجموعها ويظهر مستورها ، فيقول إن كان بينك ، وبين قوم هُدنة فَخَفَّتْ مِنْهُمْ خِيَانَةٌ أَوْ نَقَضًا

للعهد والمواثيق التي شرطت لهم ، وأذنتهم بالحرب لتكون أنت وهم في العام بالنقض سواء ، ومنه قوله سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا... ﴾ [سورة يوسف: ٨٠] ومنه قوله

سبحانه ﴿ فَأَصْدَعُ يَمَانُومَرُّ... ﴾ [سورة الحجر: ٩٤] وقوله:

﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ١٩] وهكذا مما لا يمكن

استيعابه شأن القرآن في كل مناحيه .

وفي القرآن الكريم من ألوان البديع ما يطالعنا به كتاب " البديع " لابن

المعتز وكذلك في كتاب " إعجاز القرآن " للباقلاني ، وما تناوله بالنقد والتحليل

للإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة " .

## إعجاز القرآن

هذه البلاغة التي أو مأنأ إليها توصلنا إلى " الإعجاز للقرآن " وهى مسألة ذات تاريخ طويل ، ومباحث شتى ، وآراء متناقضة فمن قائل " بالصُرْفَة " ومن قائل " بالغيوب " ومن قائل " بالنظم " وربما كان القول بالبلاغة أجمع الآراء وأشملها إذ يتناول جميع ذلك ، فإذا فسرنا البلاغة بأنها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال " كما هو شائع ومعروف فإننا نجد جميع ما ذكر داخلاً فى هذا المعنى لأن نفوس العرب حينذاك كانت متأثرةً بعوامل قديمة جاهلية استدعت ذلك كله قصص الماضين ، وغيرت المستقبل وعلميات الحياة الراقية .

وهذا الأسلوب الرائع الذى لا يُسَامى قد عاصر العرب وشكائهم قوية وألسنتهم حِداد ، وجماهيرهم متطلعون إلى مندوحة من الغيب ، أو ظل من الشبهة يلقونها على القرآن عَسَى أن يُبعدوا جانبه من الصلة بالسماء ، وتنزيل الوحي وأنهم لو وجدوا إلى شىء من ذلك سبيلاً لما قصرُوا عنه ، ولأمعنوا فيه ، واتخذوا من قليل ما وجدوا منه احتجاجاً عنيداً وتوهيناً شديداً لسياسة الرسالة الإسلامية على الإطلاق ، ولكنهم بعد أن داروا بأعينهم فيما حولهم من الأشياء ، وبعد أن قلبوا ما أتى به رسول الله ﷺ من القرآن على عقولهم ، ومذاهبيهم وراضوه باحتيالهم وألسنتهم ، واجتمع لهم مشايخهم وفهمائهم ، والقادة المخصوصون بالشرف والرياسة من عشائريهم تراسلوا فيما عرض من ذلك لهم ، فقال لهم " الوليد بن المغيرة " وقد اجتمع إليه نفر منهم فى خبر طويل ذكرته كتب السير ، والتاريخ الإسلامى فقالوا له " قل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له " قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن

واللّٰه ما يشبهه الذى تقول شيئاً من هذا ، واللّٰه إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ، ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته " قالوا " لا يرضى عنك قومك حتى يقول فيه قال " فدعونى حتى أفكر ، فلما فكر قال : " إن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته فتعرفوا عنه بذلك ، ثم لم يمتد بهم اللّجاج ، ولم تطلّ المعاندة حتى تبين لهم أنه الحق فأمنوا به وصدقوا بتنزيله ، ووحيه .

ونحن لا نتردد فى أن العرب قد عُرفوا باللّسن والفصاحة والبلاغة والقول فقد أمسكوا بزمام الفصاحة ، وأخذوا بتلابيب البلاغة فكانوا بحق فرساناً فى البيان ، وعمالقةً فى القول والبلاغة وكانت أمة العرب لا تعرف الفضل لرجالها إلا فى شعريجيدون حيّكه ، أو خطب يرموان بطوالها ، وقصارها ولما كان ذلك يناسب أن تكون حجة " محمد " ﷺ عليهم هى " البيان والبلاغة " لأنها هى التى آمنوا بها فيما بينهم وعرفوا قدرها فى نفوسهم .

فما لا ريب فيه أن القرآن الكريم قمة فى الإعجاز البلاغى واللّغوى وهذا مما لا يختلف فيه إثنان ، ولا ينتطح فيه عنزان وهو مع بلاغته سليم التأليف خالٍ من الاضطراب وهذا هو الذى شغل علماء البلاغة فظلوا أجيالاً طويلة يميطنون اللّثام عن أسراره ، ويسبرون أغوار بيانه فما انتهوا إلى غاية ، ولا وقفوا إلا على بعض الذى ينطوى عليه هذا العظم العجيب ، وذلك الأسلوب الراقى .

## أثر القرآن في اللغة والأدب

إن اللغة العربية من حيث هي ألفاظ، وعبارات لهجة خاصة ونظام نحوي ممتاز قد تأثرت بالقرآن الكريم تأثيراً مباشراً يظهر فيما يأتي :

**أولاً :** إيجاد كلمات جديدة للعرب قبل الإسلام والقرآن وهذه الكلمات متصلة بما أتى به القرآن من شعائر جديدة أو معانٍ طارئة جرت على لسان الرسول ﷺ - ووردت في الكتاب العزيز من ذلك كلمة الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة، والمنافق اسم إسلامي لم يعرف في الجاهلية وهو من دخل الإسلام بلسانه دون قلبه سمي منافقاً من نفاق اليربوع، ومن ذلك قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - مات حتف أنفه - ولا ينتطح فيه عنزان .

**ثانياً :** عكس ذلك أي إماتة ألفاظ كانت موجودة فلما ماتت معانيها ماتت ألفاظها من ذلك " المرباع " ، " والنشيطه ، والفضول " وهي أسماء لأقسام من غنائم الحروب كانت وفقاً على الرؤساء والسادة ، وحل محلها - ما ذكر في نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ [الأنفال: ٤١] " إلخ .

**ثالثاً :** ومن ذلك نقل ألفاظ من معانيها اللغوية إلى معانٍ اصطلاحية شرعية كلفظ " المؤمن ، المسلم ، والكافر " فالعرب إنما عرفت المؤمن من الأمان ، والإيمان هو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الإسلام والمسلم إنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء وكذلك كانت العرب لا تعرف من الكفر إلى الغطاء والستر وكلفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج والركوع والسجود فقد كانت لها معانٍ في الجاهلية غير معانيها في الإسلام وأما تأثر اللغة بالقرآن تأثراً غير مباشر أي ليس من صميم تكوين حروفها وكلماتها فيمكن ذكره فيما يلي :-

- ١- نشر اللغة العربية وانتقالها بالقرآن الكريم إلى بيئات أجنبية جديدة في " مصر والشام والعراق وبلاد فارس والروم " تبعاً للإسلام وانتشار القرآن، إذ كان المسلمون من هذه البلاد يتعلمون القرآن ولغته تكميلاً لإسلامهم ، ومسيرةً للنظام الجديد وكان من ذلك ظهور علماء اللغة والأدباء والفلاسفة الإسلاميين من غير العرب ، وبذلك عرفت العربية بين الصين والاندلس وجنوب السودان .
- ٢- توحيدها ، فقد كان العرب ذوي لهجات خطابية عدة، تخالف في الألفاظ والتراكيب واللهجات والإعراب ، ولكن لغة القرآن قضت على تلك اللغات أو اللهجات وحملت العرب جميعاً على اعتناقها وترك ما عداها، وقد حصل ذلك بالتدريج ، ولعله تم رسمياً أو غالباً زمن " عثمان " لما كتب المصحف بلغة " قريش " وحمل عليها القراء والمسلمين وقد كان الرسول (ﷺ) ييسر على العرب القراءة بلهجاتهم أول الأمر مجارةً لملكاتهم اللغوية الأصلية المتوارثة ثم انتقلت هذه اللغة القرشية مع القرآن إلى البلاد الإسلامية فكانت اللغة الإسلامية الرسمية .
- ٣- سلامة الأداء في لفظ الحروف والكلمات وقواعد النحو والصرف وتكوين الجمل وذلك راجع إلى بقاء القرآن محفوظاً غير مُغيَّر ، ومنقولاً بالتواتر اللفظي وغير خاضع للتطورات التي أملت بلغات العامة فحفظ القرآن أسلوب اللغة وتكوين كلماتها وجملها ، ونعمة أدائها سليمةً كما عُرفت أيام الرسول (ﷺ) وهنا يعترض بعض المستشرقين على هذه المحافظة الشديدة التي حالت بين اللغة وبين التطور ، ولكن ذلك مردود إلى وجهين :-
- أحدهما : أن سلامة العبارة لا تغاير التطور مطلقاً ولا سيما ما هي عليه من سعة في تكوين الجمل وال فقرات وقد حدث ذلك فعلاً دون معارضة هذا المثال القرآني فطوّعت اللغة لكل معاني وموضوعات الحضارة .

وثانئيهما : أن ذلك التطور العام الذى يرمون إليه ويمثل جهود الشعوب المختلفة فى تكوين لغات فرعية عراقية ، ومصرية ، وشامية – وقد حدث فعلاً – لم يعرض فيه القرآن ورجاله بل قد يكون فعلاً آداباً قومية وسمح للغات الإقليمية أن تنمو كما شاءت – ونرجو لا يغضب هؤلاء النقاد – الفصحى سليمة تقيم هذه الألسنة والأقوام فهى ميزة ملائمة للصلات العامة بين بلاد الشرق العربى .

٤- احتمال هذه اللغة مظاهر الحضارة واستيعابها لشؤونها وملابساتها فقد كانت فى الجاهلية وقفاً على مقومات الحياة البدوية الساذجة ولكن القرآن ، قواها ونشرها وطوعها لعلوم الفرس واليونان والهند والسريان ، وللعلوم الإسلامية الخالصة وطوعها للفنون الأدبية التى زخرت بها الآداب العربية على يد الكتّاب والشعراء والفنيين والفلاسفة والمؤرخين ، فمُثلت بذلك دوراً خطيراً فى تاريخ الحضارة الإنسانية .

أما الأدب فهو كما قدمنا قد تأثر بالحياة الجديدة التى أحدثتها القرآن وتمثلت فى تحضر الأدب ، وانتقاله من أدب صحراوى ساذج يدور حول الصحراء وحيواناتها ونباتها إلى أدب مثقف متحضر نى فنون وموضوعات حضرية متصلة بالسياسة والدين والفكر العلمى الإسلامى العميق الذى أخذ ينتشر حتى دخل وادى النيل ودجلة والفرات وبلاد الروم والفرس وقام بأسباب الحياة فيها ، وقضى على آدابها ولغاتها القومية وحل محلها ، ونهض بجميع العلوم الإسلامية والعربية الأصيلة والدخيلة ، وذلك إنما كان بسبب القرآن الكريم الذى قضى على الروح المتعصبة، وألَّفَ بين النفوس والشعوب ، ولم ينكر لأهل الكتاب الذين وجدوا فى جوار المسلمين ومعاونتهم ومسالتهم ما يحقق معنى الأخوة والإنسانية ، وبتعاليم القرآن والاسلام الذى لم يرفض الحركات الفكرية، والثقافات الأجنبية ؛ الفارسية والرومية والهندية، وجد جيل إسلامى متحضر رقيق المشاعر، غزير المعارف .